

النوع الستون

في فواتح السُّور

أفردها بالتأليف ابن أبي الإصبع في كتاب سمّاه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح» .
وأنا ألخص هنا ما ذكره مع زوائد من غيره.

اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور عنها :

الأول: الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه من صفات النقص، فالأوّل التحميد في خمس سور، وتبارك في سورتين، والثاني التسييح في سبع سور.

قال الكرّماني في «متشابه القرآن»^(١): التسييح كلمة استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل؛ لأنه الأصل، ثم بالماضي في الحديد والحشر، لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى؛ استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها.

الثاني: حروف التهجي في تسع وعشرين سورة، وقد مضى الكلام عليها مستوعباً في نوع المتشابه، ويأتي الإمام بمناسباتها في نوع المناسبات.

الثالث: النداء في عشر سور: خمس ببدء الرسول ﷺ: الأحزاب، والطلاق، والتحريم، والمزمل، والمدثر. وخمس ببدء الأمة: النساء، والمائدة، والحج، والحجرات، والممتحنة.

الرابع: الجمل الخبرية، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال]. ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة]. ﴿إِنَّا أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل]. ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء]. ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون]. ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور]. ﴿نَزِيلٌ أَلَكْتَبِ﴾ [السجدة]. ﴿الذِّبْنَ كَفَرُوا﴾ [محمد]. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح]. ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾ [القمر]. ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ﴾ [الرحمن]. ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [المجادلة]. ﴿الْحَاقَّةُ﴾ [سأل سائل]. [المعارج]. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح]. ﴿لَا أَقِيمُ﴾ في موضعين [القيامة، البلد]. ﴿عَسَى﴾ [عبس]. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [القدر]. ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ [البينة]. ﴿أَلْفَارِعَةُ﴾ [الهنالك]. [التكاثر]. ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ [الكوثر]. فتلك ثلاث وعشرون سورة.

الخامس: القسم في خمس عشرة سورة:

سورة أقسم فيها بالملائكة، وهي: ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾.

وسورتان بالأفلاك: البروج والطارق.

وست سور بلوازمها: فالنجم أقسم بالثريا، والفجر بمبدأ النهار، والشمس بآية النهار، والليل بشطر الزمان، والضحي بشطر النهار، والعصر بالشطر الآخر أو بجملة الزمان.

(١) «البرهان في متشابه القرآن» محمود بن حمزة الكرّماني ص ٣٤١، أول سورة الحديد.

وسورتان بالهواء الذي هو أحد العناصر، والدَّارِيَات، والمرسلات.

وسورة بالترربة التي هي منها أيضاً، وهي: الطور.

وسورة بالنبات وهي: ﴿وَالْيَيْن﴾.

وسورة بالحيوان الناطق وهي: ﴿وَالنَّازِعَات﴾.

وسورة بالبهيم وهي: ﴿وَالْعَادِيَات﴾.

السادس: الشَّرْطُ في سبع سور: الواقعة، والمنافقون، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والزلزلة، والنصر.

السابع: الأمر في ست سور: ﴿قُلْ أُوْحَى﴾، ﴿أَقْرَأ﴾، ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ﴾، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ المعوذتين.

الثامن: الاستفهام في ست سور: ﴿هَلْ أَتَى﴾، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ﴿هَلْ أُنذِرُ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ﴿أَرَأَيْتَ﴾.

التاسع: الدعاء في ثلاث: ﴿وَبِئْسَ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، ﴿تَبَّتْ﴾.

العاشر: التعليل في: ﴿لِيُؤَلِّفَ قُرَيْشٍ﴾.

هكذا جمع أبو شامة^(١)، قال: وما ذكرناه في الدعاء يجوز أن يذكر مع الخبر، وكذا الثناء كله خبر **إِلَّا** ﴿سَبِّحْ﴾، فإنه يدخل في قسم الأمر،

و(سبحان) يحتمل الأمر والخبر. ثم نظم ذلك في بيتين فقال:

أثنى على نفسه سبحانه بشبو ت الحمد والسلب لما استفتح السُّورَا

والأمر شرط النداء والتعليل والقسم الدُّ عا حروف التَّهَجِّي استفهم الخبرا

وقال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء؛ وهو أن يتأق في أوّل الكلام، لأنه أول ما يقرع

السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلّا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية

الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأحسنه نظماً وسبكاً، وأصحّه معنى،

وأوضحه وأحلاه من التعقيد، والتقديم والتأخير الملبس، أو الذي لا يناسب.

قالوا: وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها، كالتحميدات وحروف

الهجاء والنداء، وغير ذلك.

ومن الابتداء الحسن نوع أخصّ منه يسمّى: براعة الاستهلال، وهو: أن يشتمل أول الكلام على

ما يناسب الحال المتكلّم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله، والعلمُ الأسنى في ذلك سورة الفاتحة،

التي هي مطلع القرآن، فإنّها مشتملة على جميع مقاصده، كما قال البيهقيّ في «شعب الإيمان» [٢٣٧١]:

(١) أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي، أبو القاسم، مؤرخ، محدث (ت: ٦٦٥هـ). «فوات الوفيات» ١/ ٢٥٢.

أخبرنا أبو القاسم بن حبيب، أنبأنا محمد بن صالح بن هانئ، أنبأنا الحسين بن الفضل، حدثنا عفان بن مسلم، عن الربيع بن صُبيح، عن الحسن قال: أنزل الله مئةً وأربعة كتب، وأودعَ علومها أربعة منها: التوراة، والإنجيل، والزُّبور، والفُرقان. ثم أودع علوم التَّوراة والإنجيل والزبور والفرقان القرآن، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة.

وقد وَجَّه ذلك: بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت بها الأديانُ أربعة:

علم الأصول: ومداره على معرفة الله وصفاته، وإليه الإشارة بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢١ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومعرفة النبوات، وإليه الإشارة بـ ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة بـ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وعلم العبادات: وإليه الإشارة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وعلم السلوك: وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية، وإليه الإشارة بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٢٢ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وعلم القصص: وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية؛ ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن؛ وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة، وأنواع البلاغة.

وكذلك أول سورة ﴿أَقْرَأُ﴾؛ فإنها مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال، لكونها أول ما أنزل من القرآن: فإن فيها الأمر بالقراءة والبداء فيها باسم الله، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام. وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل، وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين. وفيها ما يتعلق بالإخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ [العلق: ٥]؛ ولهذا قيل: إنها جديرة أن تسمى: عنوان القرآن، لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله.

